المحاضرة الثانية
موقف الحداثة الشعرية العربية من عمود الشعر

يعد عمود الشعر العربي من أبرز القضايا النقدية عند النقاد العرب؛ من حيث كونه البناء الأمثل في نظر الناقد القديم للشعر العربي. وقد كانت فكرة عمود الشعر قبل اكتمالها في النقد العربي مجرد ملاحظات عابرة عند ابن سلام الجمحي والجاحظ وابن قتيبة وقدامة بن جعفر، حتّى جاء ابن طباطبا الّذي أشار في عياره إلى فكرة سنن العرب وتقاليدهم. ثمّ بدأت تتشكّل نظرية العمود على يد الآمدي ثمّ القاضي الجرجاني، واكتملت دعائمها وأسسها على يد المرزوقي في شرحه لديوان الحماسة، حيث يحدّد المرزوقي أصول عمود الشعر في سبعة معايير نقدية تصبح هي مرتكزات الشعر في النقد العربي القديم؛ وهذه المعايير هي كالآتي:

1- عيار المعنى أن يعرض على العقل الصحيح والفَهْم الثاقب.
2- عيار اللفظ هو الطبع والرِّواية والاستعمال.
3- عيار الإصابة في الوصف هو الذكاء وحسن التمييز.
4- عيار المقاربة في التشبيه هو الفطنة وحسن التقدير.
5- عيار التحام أجزاء النظم والتئامه على تخير من لذيذ الوزن هو الطبع واللسان.
6- عيار الاستعارة هو الذهن والفطنة.
7- عيار مشاكلة اللفظ للمعنى واقتضائها للقافية هو طول الدُّربة ودوام المدارسة.

وقد ظل عمود الشعر مسيطرا على الشعرية العربية ردها من الزمن، حتى بزغ فجر الحداثة العربية الّتي ما انفكت تهدّ بين الحين والآخر بعض بنيانه حتّى خرّ هامدا. ولقد كان هذا الموقف العدائي للحداثة العربية تجاه عمود الشعر إنّما يرجع إلى أنّ هذا العمود كان سبباً رئيساً في جمود الشعر العربي وتأخره. ويمكننا إجمال هذه العوامل التي أدّت إلى جمود الشعر- حسب أهل الحداثة- في الأمور التالية:

1- التقليدية:

إنّ عمود الشعر العربي يكرّس التقليد، ويرفض الإبداع، من حيث إنّه يجعل قبلة الشعر هي الماضي لا المستقبل، فعلى الشعراء أن ينسجوا على منوال من سبقوهم، فليس لمتأخر الشعراء، كما يقول ابن قتيبة، أن يخرج على مذهب المتقدّمين في هذه الأقسام؛ فيقف على منزل عامرٍ، أو يبكي عند مشيد البنيان، لأن المتقدّمين وقفوا على المنزل الداثر، والرّسم العافي. أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما، لأنّ المتقدّمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العِذَاب الجواري، لأنّ المتقدّمين وردوا على الأواجن الطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأنّ المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة". وهذه الخاصية تتنافي وطبيعة الشعر الّذي يتأسّس بشكل كبير على الفردية والذاتية.

2- اللافردية ومراعاة الذوق العام:

إنّ فكرة التقليد الّتي أرسى دعائمها عمود الشعر، لا بدّ وأن ترخي بظلالها على جوانب أخرى، حيث إنّ التقليد لا يكون أفقيا وحسب، وإنّما عموديا أيضا؛ أي محاكاة الذوق العام، حيث يؤكّد المرزوقي أهمية أن يكون الكلام مطابقاً للذوق العام، أو ما يُسمّى " طريقة العرب"، فالذوق العام معيار الحكم على جودة الشعر وتقدّم الشاعر. ويعلّق إحسان عباس على هذه القضية (الذوق العام) بقوله: " إن هذا القانون متعسّف، لأنه يفترض اللجوء إلى قاعدة لا يمكن

تحديدها. فمن هو الذي يستطيع أن يزعم لنفسه وللناس أنه قد أحاط بما يسمّى (طريقة العرب) في الاستعمالات اللغوية والتصويرية. ولماذا يعمد الآمدي نفسه كلما رأى أثراً قديماً مشهاً لطريقة أبي تمام، إلى الاعتذار عنه وعدّه من النادر أو الشاذ؟ أليس هذا النادر صادراً عن عربي، تقبّله ذوقه وأقرّه خياله -وهو خيال عربي -، ولم نسمع أنه طواه استهجاناً أو قابله الناس حينئذ بالاستغراب ".

3- تقديم العقل وإهمال الخيال:

لقد كان لإهمال النقد العربي دور الخيال، أثر كبيرٌ في جمود الشعر العربي، وتحوله إلى صنعة لا تحتاج إلى كثير من الخيال والابتكار. فالخيال عندهم ضرب من الوهم، والتخييل قياس شعري خادع، ويقابل إهمال الخيال الإعلاء من شأن العقل في الإبداع الشعري. فالمرزوقي يطلب في عيار المعنى أن "يُعْرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب". وعبد القاهر يجعل غرضه في الكلام على الاستعارة أن يبيّن "أحوالها في كرم منصبها من العقل وتمكنها في نصابه، وقرب رحمها منه أو بعدها، حين تنسب، عنه. لقد نظر النقاد العرب إلى الشعر نظرة " عقلية تعتمد على المنطق.

4- **الشكلية:**

ومما أعابته الحداثة على عمود الشعر هي تلك الشكلية التي يؤكد عليها في عدد من أنظمته، فـ " جوهر الشعر - كما يبدو في هذا العمود -يتعلّق بالشكل، أو المظهر، في اللفظ، والوصف، والتشبيه، والاستعارة، والمشاكلة، واقتضاء القافية، فضلاً عمّا في معيار كل باب من قيود فرعية أخرى. وربما كان لنا أن نستنبط، إذن، قيام الذوق العربي على العناية بالشكل، لا من حيث تعبيره عن معنى مجرّد، وإنما من حيث تعبيره عن معنى محسوس يأنس إليه العقل. فإذا ما قبل العقل المعنى، لم يبق للشاعر إلاّ أن يتجرّد لوضعه في قمقم الشكل. من خلال اللفظ، والإصابة، والمقاربة، والمناسبة، والمشاركة، فيبعد بذلك عن عالم الفكر الإنساني، وعن محاكاة المشاعر الباطنة الغامضة، التي قد تتأبّى على العقل الصحيح".

لقد كان لنظرة العرب الحسّية في إدراك الجمال أثرها العميق في انصراف " الأغلبية إلى الاهتمام بالجمال الشكلي الذي يتأدّى إلى الحواس، فيلذّها أو يؤذيها(...). وقد أمكن ضبط القواعد التي تتحكم في الشكل، فأصبحت هي قواعد الصنعة". وهكذا سيطرت الصنعة على الفكر النقدي الجمالي العربي.

5- الجزئية:

يعتبر الحداثيون أنّ النظرة التجزيئية هي سمة من سمات العقلية العربية التقليدية، التي ما كانت تنظر "إلى القصيدة ككل وكوحدة، بل تنظر إليها كأجزاء منفصلة مستقلة ". ولقد ظهرت التجزيئية، في استقلالية الصورة، وفي وحدة البيت. وقد كان لهذا الأمر أثر كبير في ميل الشعر إلى الصنعة، حيث بات كلّ همه أن يأتي بالصور الفردية المستقلة المعجبة، وأن يحاول أن ينهي المعنى بنهاية البيت. وقد كان لهذه العناية بالصورة الفردية أثرها في فصل الصورة عن المعنى.

خاتمة:

يرى الحداثيون أنّ علماء اللغة كان لهم دور كبير في سيطرة تلك النزعة الشكلية على عمود الشعر، فقد كان هؤلاء يجلّون الشعر الجاهلي إجلالاً عظيماً، لأنه مصدر علومهم الوحيد تقريباً. وممّا أدّى إلى هذه الشكلية أيضاً- حسب أهل الحداثة- وضع النقاد نماذج من الصور النموذجية السلفية، رغبة منهم في محاكاة الشعراء لها، حتى يعترف لهم بالتقدم والبراعة والإجادة.